موقع الدّراسة الصّوتية في كتاب المقدمة للعلامة عبد الرّحمن ابن خلدون

(The location of the phonological study in the book introduction the scholar Abd al-Rahman bin Khaldoun)

مريم بوخاوش

المدرسة العليا للأساتذة–بوزريعة–meriem.boukhaouche@yahoo.com

تاريخ الارسال 2021/04/13.	تاريخ القبول27 / 05 / 2021.	تاريخ النشر 15 / 12 / 2021

الملخص		**Abstract**
تكتسي الدراسة الصوتية أهمية بالغة عند علماء اللغة لاعتبار أن الصوت أهم ما ينتج عنه الكلام ، ومن بين العلماء الذين أولوا عنايتهم بالجانب الصوتي عبد الرحمن بن خلدون ، فقد اهتم بكيفية حصول الملكة اللسانية في العديد من فصول المقدمة ، والتي حوت نظريات متعلقة بالجانب الصوتي ، وكان موقعها متباينا نجده في تعريفه لعلم اللغة على أساس اللسان الذي يعتبره العلماء عضوا فعالا في حصول الصوت ، وفي سياق حديثه عن مخارج الحروف واعتباره ابن جني مرجعيته الأساسية في هذا المجال ، فركز ابن خلدون على مخرج حرف القاف وكيفية حصوله، وأثر ذلك على التفريق بين العربي الفصيح والعربي الدخيل، واهتم أيضا بالفروق الصوتية بين العرب والعجم مما جعله يركز على السماع كركن من أركان التحصيل اللساني		Phonoligical study is of great importance to linguists to consider the sound as the most important product produced by speech ,and among the scholars who paid attention to the phonemic aspect Abdul Rahman Ibn Khaldoun ,he was interested in how the linguistic queen obtained in many chapters of the introduction, which contained theories related to the phonemic aspect ,and its location we find it divergent in his definition of linguistics on the bases of the tongue ,which scholars consider an effective member in obtaining the sound , and the context of this discussion of letter exists and considering him Ibn Jinni as his main reference in this field Al-DaKhil ,and he also paid attention to the acoustic differences between the Arabs and the Persians ,which made him focus on hearing as a turmeric one of the pillars of linguistic achievement ,which the phonetics scholars termed the headphone.

والذي اصطلح عليه العلماء الصوتيات السماعية.		
كلمات مفتاحية: دراسة صوتية ؛ ابن خلدون ؛ السماع ؛ اللسان ؛ النطق ؛ مخارج الحروف.		**Keywords** :Phonological study؛ Ibn Khaldoun ؛ Hearing ؛ The tongue ؛ Pronuciation ؛ Letter exits.

المؤلف المرسل: مريم بوخاوش، **الإيميل:** meriem.boukhaouche@yahoo.com

1. مقدمة:

شمل الفكر الخلدوني العديد من المجالات العلمية ، وأسس عدة نظريات ذات أسس ومناهج ، وإن كان قد اشتهر كمؤرخ بإنتاجه الضخم : كتاب العبر : ، فإنه كذلك عرف بالعالم اللساني ، فالجزء الأول ـ المقدمة ـ قد حوى العديد من التعريفات لمختلف المواضيع المتعلقة بالحضارة الإنسانية ، ومن بين أهم العلوم التي اهتم بها ابن خلدون اللسانيات والصوتيات ، وقد كان له فيها آراء متعددة ، تتدخل أسسها في العديد من الدراسات الصوتية ، ولعل أهمية نظرية ابن خلدون اللسانية جعلتني أقف عند وجهة نظره في المجال الصوتي الذي يعتبر بابا هاما ترتكز عليه اللغة ، فما هي وجهة نظر ابن خلدون في المجال الصوتي، وكيف وظف نظريته الصوتية في المقدمة ، وما هي أبرز المواضيع المتعلقة بالجانب الصوتي فيها ؟

وعليه يهدف هذا البحث إلى إبراز جوانب متعلقة بالملكة اللغوية و علاقتها بالجانب الصوتي من ناحية مخارج الحروف، وكذا مواضع المسار الصوتي المتعلق باللسان وكذا أهمية السماع في الدراسة الصوتية الخلدونية، ومن ثم كيفية نظرة ابن خلدون في التمييز بين العربية الفصحى وغيرها عن طريق تفصيله في تأثير العجمة على الجانب الصوتي ضاربا بذلك أمثلة عديدة خاصة ما تعلق بها بالأندلس وبلاد البربر، وكيفية حفاظهم على العربية الفصيحة من خلال تركيزهم على الجانب الصوتي .. وغيرها من المعطيات التي تكتسي أهمية لغوية وحضارية في نفس الوقت.

إنّ ابن خلدون[1] من علماء القرن الثامن ، واحد من أبرز من درسوا المسائل اللّغوية ، ويتعلق بها من مفاهيم، فجاءت مقدمته واحدة من أبرز المصادر العربية في الدراسة اللسانية وعلاقتها بالصوتيات،

وللأهمية التي تكتسيها المقدمة في مختلف العلوم عامة، وفي الجانب الصوتي خاصة جاءت هذه الدراسة لتوضيح المفاهيم المتعلقة بالصوت مخرجا وصفة ، وكيفية حصول الصوت استنادا إلى آرائه التي ارتبطت في مجملها بالسمع والنطق، وهو كذلك يميز في العديد من فصول مقدمته بين العربي الفصيح والعربي الدخيل، وعلاقة هذا التمييز بالجانب الصوتي .

1 . مفاهيم متعلقة بالصوتيات:

1 . 1 . مفهوم الصوت لغة:

جاء تعريف الصوت في معجم اللغة أنه جنس لكل ما وقر في أذن السامع يقال هذا صوت زيد ورجل صيت إذا كان شديد الصوت وصائت إذا صاح [2].

وجاء تعريف الصوت عند الخليل بن أحمد في قوله: " صوت فلان بفلان أي دعاه وصات يصوت صوتا فهو صائت بمعنى صائح، وكل ضرب من الأغنيات صوت من الأصوات، ورجل أحسن الصوت، وفلان حسن الصيت له صيت وذكر في الناس حسن "[3] .

والصوت مصدر صات الشيء يصوت صوتا فهو صائت، وصت تصويتا فهو مصوت، والصوت مذكر لأنه مصدر كالضرب والقتل، والصوت معقول لأنه يدرك ولا خلاف بين العقلاء في وجود ما لا يدرك وهو عوض ليس بجسم، ولا صفة لجسم، والدليل على أنه ليس بجسم أنه مدرك بحاسة السمع[4].

1. 2 . مفهوم الصوت اصطلاحا:

تعددت المفاهيم الاصطلاحية المتعلقة بالدراسة الصوتية ، حيث انطلق العلماء من مفهوم أن اللغة عبارة عن أصوات يعبر بها المتكلم عن مقصوده، " وقد عرف علم الأصواتphonology بأنه دراسة أصوات اللغة ، ولكن بعض اللغويين يطلقونه ويريدون به دراسة التغيرات والتحولات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها (علم الأصوات التاريخي) ، ولكن علم الأصوات ينبغي أن يعرف على أنه العلم الذي يدرس ويحلل ويصنف الأصوات الكلامية من غير إشارة إلى تطورها التاريخي ، وإنما فقط بالإشارة إلى كيفية إنتاجها وانتقالها واستقبالها ، والوحدة الأساسية لعلم الأصوات هي الصوت المفردphone [5].

كما عرفه آخرون على أنه الأثر الواقع على الأذن من بعض حركات ذبذبية للهواء، والذبذبات في اللغة يحدثها الجهاز الصوتي للمتكلم، وعلم الصوتيات يجب أن يشتمل على ثلاثة أجزاء: الجزء الخاص بإنتاج الصوت، والجزء الخاص بانتقاله، والجزء الخاص باستقباله[6].

1. 3 . تصنيف أصوات العربية:

للغة العربية ثمانية وعشرون حرفا وهي: الألف، الباء ، التاء ، الثاء ، الجيم ، الحاء ، الخاء ، الدال ، الذال ، الراء ، الزاي ، السين ، الشين ، الطاء ، الظاء ، العين ، الغين ، الفاء ، القاف ، الصاد ، الضاد، الكاف ، اللام ، الميم ، النون ، الهاء ، الواو ، الياء ، الهمزة .

وصنفت الأصوات على حسب النطق إلى أصوات مهموسة (ت ، ث ، ح ، خ ، س ، ش ، ص ، ط ، ف ، ق ، ك ، هـ) ، وأصوات مجهورة (ب ، ج ، د ، ذ ، ر ، ز ، ض ، ظ ، ع ، غ ، ل ، م ، ن ، و ، ي) وأصوات لا هي بالمهموسة ولا بالمجهورة (همزة القطع فقط)[7] .

2 . المفاهيم الصوتية المتعلقة بمخارج الحروف وصفاتها عند ابن خلدون:

2 . 1 . مخارج الحروف وصفاتها وأثره في صناعة المعاجم (المدرسة المعجمية الصوتية) :

ركز ابن خلدون في سياق حديثه عن مخارج الحروف على المرجعية الأولى التي تعتمد علها أغلب الدراسات الصوتية القديمة والحديثة، وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي، حيث يعتبره أول من وضع نظاما صوتيا حسب مخارج الحروف فذكر أنه " اعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرا وهي الحروف الهوائية، وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصر منها فلذلك سمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا "[8].

كما ذكر علماء آخرين من معجميين ممن ساروا على نهج الخليل في الاعتماد على مخارج الحروف في ترتيب المعجم وذكر منهم أبو بكر الزبيدي في الأندلس، وصحاح الجوهري من المشرق الذي رتب معجمه على حروف المعجم لكنه ابتدأ بالهمزة وجعل التعاريف بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، وابن سيدة في الأندلس .... وغيرهم[9].

2 . 2 . مخرج حرف القاف وعلاقته بالعربية الفصيحة:

ومن أهم الحروف التي ركز عليها بن خلدون هي حرف **القاف** فهو بالنسبة إلى مخرجه قد أحدث فرقا بين العربية الفصيحة والعربية الأخرى ، وقد جاء في هذا السياق الفصل السابع والأربعون تحت عنوان : في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير ، ففي تمييزه بين اللغتين يقول: " ولغة حمير لغة أقوى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر، ثم يذكر مثالا على ما وصل إليه اللسان العربي في وقتنا هذا ، وما حصل من تغيير في مخارج نطق الحروف فيقول : ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار ، كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى ، وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف ، وإن كان أسفل من موضع القاف، وما يليه من الحنك الأعلى كما هي، بل يجيؤون بها متوسطة بين الكاف والقاف، وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال مختصا بهم لا يشاركهم فيها غيرهم " [10].

ثم جعل بن خلدون حرف القاف وكيفية النطق به ميزة تميز العربي الصريح عن العربي الدخيل فيقول : " إن من يريد التقرب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها ، وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف "[11] .

ثم يفصل في كيفية حدوث مخرج القاف فيقول : " والظاهر أن هذه القاف التي ينطق بها أهل الجيل العربي البدوي هو من مخرج القاف عند أولهم في أهل اللغة ، وأن مخرج القاف متسع ، فأوله من أعلى الحنك ، وآخره مما يلي الكاف ، فالنطق بها من أعلى الحنك هو لغة الأمصار ، والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي" [12].

إذن مخرج القاف مهم جدا في ذلك التقسيم الصوتي ، وهو في الدراسة الصوتية يكون في اللهاة مع مؤخرة اللسان ، ويسمى هذا الصوت لهويا ، ويتم في هذه المنطقة إنتاج صوت واحد وهو القاف ، ويتم

انتاجه عن طريق اتصال مؤخر اللسان بمنطقة اللهاة مع الطبق اللين (بصورة لا تسمح بمرور الهواء) ، يعقبه تسريح فجائي له (انفجاري) [13].

ومن هذا المنطلق نرى أن ابن خلدون يذكر ما ذكره علماء الصوتيات في كيفية إخراج هذا الحرف من مخرجه ، وتمييزه عن المخارج الأخرى ، " فأهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف ، وهي التي ينطق بها أهل الجيل البدوي ، وجعلوها متوسطة بين مخرجي القاف والكاف[14] على أنها حرف مستقل وهو بعيد ، والظاهر أنها من آخر مخرج القاف لاتساعه ، ثم بين في الأخير كيفية حدوث هذا التمايز بين اللغات الذي أرجعه إلى اتساع المخرج وليس إلى الحرف نفسه فالفرق بين العربية والعجمة هو أنه " حرف واحد متسع المخرج " [15].

3 . المفاهيم الصوتية المتعلقة بالجهاز الصوتي :

3 . 1 . علاقة الجانب الصوتي باللسان[16] :

تجلت الدراسة اللسانية بصفة عامة في كتاب المقدمة في الفصل الثالث والأربعين عند بداية حديث ابن خلدون عن حملة العلم في الإسلام ، وتفريقه بينهم من ناحية اللسان البشري إلى فريقين العجم والعرب ،ويجعل الأكثر حاملين منهم للعلم هم العجم ، ويقسم في الفصل الخامس والأربعين من المقدمة علوم اللسان العربي إلى أربعة أقسام أساسية وهي :

. علم النحو ، علم اللغة ، علم البيان ، علم الأدب .

كما يتحدث ابن خلدون عن الملكة اللغوية وأصولها وكيفية حصولها، ويقسم الكلام إلى قسمين: نظم ونثر ويربط علاقتهما بالألفاظ والمعاني[17].

ومن منطلق تعريف ابن خلدون للغة نستنتج علاقته بالصوتيات حيث يركز ابن خلدون على اللسان، يقول : " اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام ، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان " [18]. وعليه فاللغة ملكة لسانية ذات طابع صوتي يهدف إلى تحقيق التواصل بين أفراد المجتمع .

ومن خلال اهتمام ابن خلدون باللسان فهو يشير إلى أهم عنصر تقوم عليه الدراسة الصوتية الحديثة والقديمة على حد سواء ، وهو من أهم أعضاء النطق ، ويتكون من عدد كبير من العضلات التي تمكن من الحركة والامتداد والانكماش والتلوي إلى أعلى أو إلى خلف ، وقد مكنته هذه الأوضاع من الاتصال بأية نقطة من الفم ، ويطلق كثير من العلماء مصطلح " علم اللسان " أو " اللسانيات " أو " الألسنية " على مصطلح علم اللغة ، لما للسان من دور فعال في إنتاج اللغة ، ويقسم اللسان إلى ثلاثة أجزاء : مقدمة ، وسط ، ومؤخرة [19].

3 . 2 . السماع عند ابن خلدون وعلاقته بالصوتيات السمعية :

يجعل علماء الصوتيات السماع أحد أركان الرسالة الصوتية ، وأن أساس السماع هو الأذن وهم في تعريفهم له ينطلقون من القول أنه : " جهاز استقبال صوتي يعرف جزؤه الظاهر على كل من جانبي الرأس باسم الصيوان ، وإلى جانب هذا الجزء توجد أجزاء ثلاثة أخرى هي الأذن الخارجية أو الصماخ والأذن الوسطى أو الطبلة والأذن الداخلية "[20].

ولما كانت الأذن وسيلة من وسائل تحصيل الصوت ، فقد ركز ابن خلدون على هذه الأداة في سياق حديثه عن اكتساب اللغة فركز على السماع ، بل اعتبره أبا الملكات اللسانية[21] ، فالمتعلم للغة يسمع من محيطه الاجتماعي المفردات والتراكيب متداولة ومتحركة ، فهو يتلقى اللغة في حالة ديناميكية كأصوات تتحرك فيزيائيا لتقرع سمعه فيحاول محاكاتها والنسج على منوالها[22] .

وتعتبر الصوتيات السمع "الحاسة الطبيعية التي لا بد منها لفهم تلك الأصوات، ولقد سبق في نموه ونشأته نمو الكلام والنطق والسمع أقوى من الحواس الأخرى وأعم نفعا للإنسان"[23].

ومن هذا المنطلق نجد ابن خلدون يركز عليه ، ويجعله سببا في دخول العجمة وتأثيرها على اللسان العربي ، ففي الباب الخاص بالنحو ، أن الكلام اختص بحركات وحروف لها دلالتها اللغوية ، وبهذا فرق بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى ، وجعل دخول العجمة إلى اللغة العربية عن طريق السماع سببا من أسباب فساد اللسان العربي لأنه لما كان الأطفال يأخذون هذا العلم بالسماع لم تفسد

ألسنتهم فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول ، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقي إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع "[24].

وتركيز ابن خلدون على السماع جاء في مواضع متفرقة ، خاصة في اعتماده على توضيح الوسائل الواجب على مكتسبي اللغة الاعتماد عليها ، وهي الأصول الأولى القرآن والحديث والشعر ، فالاستماع إلى القرآن من أنه أن يعزز الملكة اللسانية ، ويمكن السامع من تلقي المخارج على أصولها والابتعاد عن العجمة ، فسماع القرآن الكريم يعود اللسان على النطق السليم بجروف العربية ، ولذلك كان الكثير من الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام قد أقبلوا إلى الاستماع إلى القرآن الكريم من أجل تعويد ألسنتهم على فصاحته وحروفه ، وقد ضرب على ذلك أمثلة كثيرة كأهل الأندلس والبربر وأهل المشرق ، فالكثير منهم قد قاموا "بتطويع ألسنتهم منذ الصغر على بليغ القول وفصيح الكلام المعجز ، وذلك بتنمية مهارات الاستماع وسلامة النطق والتلاوة بشروطها المعتبرة عند أهل التجويد والإتقان"[25].

وعليه أولى ابن خلدون أهمية بالغة للسماع وكيفية سلامة الملكة اللسانية ، وهذه الأهمية لا تكاد تخلو منها جميع الدراسات الصوتية ، باعتبار ضرورة السمع في العملية الصوتية ، حتى اصطلح عليها "الصوتيات السمعية"، فالخطوات التي تلي إنتاج الكلام هي التي تتعلق بالسمع أو بالإدراك الحسي للاضطرابات الموجية الصوتية الموجودة في الجو ، ثم التعرف على هذه الاضطرابات ، ومحاولة تفسيرها ، وتبدأ العملية السمعية من اللحظة التي تدخل موجة صوتية صماخ الأذن وتصل إلى طبقة الأذن فتحركها ، وبعد انتقالها عن طريق سلة العظام تؤثر في السائل الموجود في الأذن الداخلية بطريقة تحرك أعصاب السمع، وتنقل هذه الأعصاب صورة هذا الاضطراب إلى المخ[26] .

3 . 3 . أهمية النطق في حصول الكلام عند ابن خلدون (الصوتيات النطقية):

كما بينت سابقا أن ابن خلدون يركز على أمر هام ترتكز عليه الدراسة الصوتية وهو السمع، حتى أن ما ذكره يتفق في كثير من الأحيان مع ما جاءت به الدراسات الصوتية السماعية التي تجعل الأذن أساس حصول الصوت ، فإنه كذلك قد أكمل هذه النظرية بأمر آخر لا يقل أهمية عن السمع ألا وهو النطق،

وإن كان قد جعل له عاملا مهما في حدوثه وهو التركيز على الحفظ من موروث العرب من شعر ونثر، ومن هنا نجده ينحو منحى العلماء الذين سبقوه حيث جعلوا الكلام مرتبطا بالصوت، " لأن الأصل في اللغة الصوت والخط فرع عنه ، وهذا ما ميز العرب في تراثهم الشفهي "[27]، وقد لازم النطق الحفظ في العديد من أقوال ابن خلدون فهو يقول مثلا: " وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ، ثم إجادة الملكة من بعدها "[28] .

وفي موضع آخر من المقدمة وهو الفصل الخاص بالتعليم وكيفية حصوله والشروط المرتبطة به ، نجد ابن خلدون يركز على عملية الحوار وأن حصول الملكة مرتبط به ، وأن الطلبة يتميزون فيما بينهم عن طريق النطق ، فالطالب الساكت لا تحصل له الملكة كالطالب المحاور وفي هذا الأمر نستشهد بقول ابن خلدون: " نجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ، ولا يفاوضون ، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من التصرف في العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرى أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم "[29] .

وعليه نرى أن ابن خلدون يعتمد على النطق كصورة من صور حدوث الصوت ، وهو من الركائز التي تقوم عليها الدراسة الصوتية ، ومن منطلق نظرية ابن خلدون حول أهمية المنطوق نصل إلى موضوع علم الأصوات الذي هو" أصوات اللغة المدركة التي هي حقائق عامة ويمكن قياسها بالآلات الميكانيكية ، وموضوع علم الفونيمات هو الأصوات أو المجموعات الصوتية المتقاربة التي يدرك علاقتها شعور الجماعة التي تتكلم لغة معينة "[30] .

فعلم الأصوات النطقي ينطلق من اعتبار جهاز النطق عضوا فعالا في تحقيق الكلام " فعملية الكلام تتكون من جانبين عضوي ونفسي ، وحركة الكلام تبدأ من الرباط النفسي أو العقلي الذي سبق الاتفاق عليه في عقول المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها ، ولكن سرعان ما تنتقل إلى العملية العضوية عن طريق إشارات عصبية يرسلها العقل إلى الجهاز النطقي لإنتاج الصوت المطلوب "[31] .

4 . علاقة الصوتيات ببعض العلوم عند ابن خلدون:

أبرز ابن خلدون في مقدمته العديد من العلوم والفنون ، ومن بين تلك المعارف ما له علاقة بالجانب الصوتي انطلاقا من القرآن الكريم الذي يعتبر المصدر الأول الذي تعتمد عليه الصوتيات ، والذي يعتبر أيضا المرجعية الأساسية في توضيح العديد من المسائل المتعلقة بالصوتيات ، فالحروف ومخارجها عادة ما ننطلق في دراستها من الناحية الصوتية من القرآن وطريقة أدائه ، وكيفية إخراج حروفه من مخارجها، فعلماء القراءات القرآنية قد أوضحوا العديد من المسائل الصوتية ، وفي تطرق ابن خلدون إلى مسألة التجويد وقراءة القرآن التمسنا اهتمامه بالجانب الصوتي من خلال تركيزه على توضيح القراءات القرآنية .

وكذلك يركز ابن خلدون دائما على مسألة كيفية اكتساب اللغة العربية الفصيحة منها خاصة ، وقد تطرق إلى مسألة الفصيح والدخيل من اللغة خاصة بعد ما عاصر الأحداث السياسية التي رافقت التحول في التنشئة اللغوية عند المسلمين ، فتطرق إلى مسألة العجمة وكيفية تأثيرها على اللغة من الناحية الصوتية ، كما حاول إيجاد الحلول لهذه الإشكالية ، فدرس الشعر والغناء ، وبين الطرق الكفيلة باكتساب اللغة عن طريق المحفوظ من الأشعار انطلاقا من تنشئته التي سبق وذكرت أنها مبنية على مقدار ما حفظه من الأبيات والقصائد الطوال، وتمكن من القراءة القرآنية ، وغيرها ، ولهذا ركز على الجانب الصوتي الذي انطلق في توضيح بعض المسائل من هذه العلوم .

4 . 1 . الصوت والقراءات القرآنية:

القراءات القرآنية كما عرفها ابن الجزري علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوا لناقله ، وقد مرت القراءات القرآنية بعدة مراحل إلى أن استقرت علما من علوم القرآن الكريم[32] ، وقد أفرد ابن خلدون لذلك فصلا بين فيه مفهوم هذا العلم وتطوره وانتشاره ، كما بين الجانب الصوتي في القراءات القرآنية وأن الفرق فيها يعود إلى كيفية أداء الحروف والنطق بها فيقول : " القرآن كلام الله المنزل على نبيه إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها ، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير ، فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة "[33].

كما نجد ابن خلدون يولي اهتمامه بعلم القراءات القرآنية ، وقد دفعت قراءة القرآن الكريم علماء العربية القدماء لتأمل أصوات اللغة وملاحظتها ملاحظة ذاتية ، أنتجت في وقت دراسة طيبة للأصوات العربية لا يبتعد كثيرا عما توصل إليه علماء الأصوات في الغرب .

كما ركز ابن خلدون في سياق حديثه عن القرآن الكريم ، وكيفية نطق حروفه إلى قراءات متعددة، ولهذا كان للجانب الصوتي دورا مهما في اختلاف القراءات القرآنية التي عدها ابن خلدون بقوله : " واختلاف روايات القرآن في قراءته وهذا هو علم القراءات " [34].

فالقرآن في تعريف ابن خلدون هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف ، وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه ، وكيفية الحروف في أدائها ، وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة [35].

ولا أدل على اهتمام ابن خلدون بعلم القراءات إلا لكونه مهما في الجانب الصوتي ، في تحسين الجانب الأدائي للحروف ، " فجريا على منهج علماء التجويد تتجلى فائدة صفات الحروف في أمرين :

. تمييز المشترك من الأصوات اللغوية ذات المخرج الواحد كالطاء والدال والتاء أو الظاء والذال والثاء، ويسمى هذا القسم من الصفات بالصفات المميزة أو التمييزية .

. تحسين الأداء الصوتي وتزيين اللفظ لما تضفيه من جمالية الصوت اللغوي، ويسمى هذا القسم من الصفات بالصفات المحسنة كقلقلة المقلقل وتفخيم المفخم ونحوهما [36].

وفي هذا الصدد ما يتعلق بالأصوات الصادرة عن قراءة القرآن يميز فيها بن خلدون بين نوعين من الأصوات في الأداء والتناسب وهو ما يقصد به التلحين ، كما يجعل فرقا بين الغناء والقرآن، " لأن

القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات في مواضعها، ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره "[37] .

ويضرب ابن خلدون على ذلك أمثلة من تلاؤم الأصوات ما يعرف في الشعر وقراءة القرآن فيقول: " وكثير من القراء بهذه المثابة يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم "[38].

ويستشهد على ذلك الحسن في الأداء أن مرده سلامة مخارج الحروف والنطق بها ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داوود " ، وليس معناه التلحين ، وإنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة[39] .

4 . 2 . الجانب الصوتي في الشعر والغناء عند ابن خلدون:

اهتم بن خلدون بالشعر ، وجعل له فصلا خاصا ، وتتجلى أهميته بالنسبة إليه في ما يميزه عن غيره من الشعر ، فالشعر العربي يتميز عن شعر الأعاجم تميزا واضحا ، وإن كان قد جعل هناك علاقة بينهما في إيصال الألسن مقصودها عن طريق الشعر إلا أن أحكامه تختلف فهو كلام مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة ، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا، ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويا وقافية ، ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة "[40] .

ولما كان الغناء عادة ما يرتبط موضوعه بالشعر ، فإن ابن خلدون يربط هذا الفن بالجانب الصوتي أيضا سواء من حيث الأداء وملاءمته لما وضعه أهل الصناعة (ويقصد بهم على الغالب علماء الصوت)، أو ما وقع منه في أذن السامع ، وتفصيل هذا جاء في قوله : " وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فإنه من بابه وثانيا تناسبها في الأجزاء فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل متناسبا على ما حصره أهل الصناعة ، فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة "[41].

كما يربط ابن خلدون أهمية الشعر في اكتساب الملكة اللسانية خاصة " الذي دون منتصف القرن الثاني، وفي بيئة لم تتسرب إليها العجمة والاختلاط بملكات لسانية أخرى ، لهو مرجع رئيسي في حصول الملكة اللسانية "[42]، واستشهد بشعراء منهم ابن أبي ربيعة ، كثير ، ذي الرمة ، جرير ، حبيب ، البحتري ، أبو فراس ... "[43]

خاتمة :

نستخلص من هذا البحث النتائج التالية:

أنّ ابن خلدون المفكر والمؤرخ هو أيضا اللغوي البارع الذي استطاع أن يؤسس لهذا العلم نظريات عديدة كانت في مجملها تصب في هدف واحد هو كيفية اكتساب الملكة اللسانية ، ومن أهم تلك القواعد التي يبنى عليها علم اللغة الجانب الصوتي ، ولذا جعل ابن خلدون اللغة مربوطة باللسان أولا وهذا له علاقة مباشرة بالدراسة الصوتية التي تجعل اللسان عضوا فعالا في الجانب الصوتي ، باعتبار أن اللسان له مخارج صوتية متعددة ، فالعلماء القدامى الذين سبقوا ابن خلدون ، والذين جعلوا اللغة في مفهومها أصوات يعبر بها كل فرد عن مقصوده، وأن تلك الأصوات قد تحمل هدفا اجتماعيا وهو التواصل بين الأفراد ، فابن خلدون قد حذا حذوهم في تركيزه على مسألة اللّسان .

الدراسة الصوتية تنصب عند ابن خلدون أيضا في الجانب السمعي ، فأخرج لنا بنظريته القائلة أن السمع أبو الملكات اللسانية ، ما يعرف بالصوتيات السماعية ، ولهذا جاءت هذه النظرية موضحة الجانب النظري والتطبيقي في الاستشهاد بأمثلة تفرق بين الفصيح والدخيل بتأثير من السماع ، وقد ورد في المقدمة العديد من الأقوال الخاصة بالسماع وأهميته في اكتساب اللغة العربية .

ركز ابن خلدون على المحفوظ والمنطوق في مقدمته ، فأعطى أهمية بالغة لذلك انطلاقا من قول العلماء القدامى أن الأصل في اللغة الصوت ، وقد ركزت الدراسة الصوتية على ضرورة النطق في حصول الكلام، معتمدين في ذلك على الجهاز النطقي وهو العضو الفعال في تحقيق مخارج الحروف ومن ثم

حدوث الكلام، وابن خلدون في هذا المجال يفرق بين الطلبة الذين يحاورون والذين لا يحاورون أن هناك فرق بينهما في التحصيل ، وقد ركزت الدراسة الصوتية حسب هذا المفهوم على الجهاز النطقي لأهميته في العملية الصوتية، برز موقع الدراسة الصوتية في علاقة هذا العلم بالقرآن والحديث والشعر، خاصة ما يتعلق بمخارج الحروف التي يستدل عليها بأقوال الخليل وغيره من العلماء ، واهتمامه في المقدمة وارد في معالجته للأصوات ومخارجها ، بل إن تفريقه في مخرج القاف ، والتعددات اللّهجية التي تختلف مردها إلى اختلاف هذا المخرج، وعليه وضح ابن خلدون هذه المسألة ، وتأثيرها على التمييز بين الفصيح والدخيل .

وعليه نجد أن الدراسة الصوتية قد حظيت باهتمام ابن خلدون، مما جعل لها فصولا متعددة في المقدمة ذات جوانب هامة في المجال الصوتي.

الهوامش:

[1] . أصل هذا البيت من إشبيلية ، انتقل إلى تونس في أواسط المائة السابعة ، ولد في سنة 732 هـ / 1332 م وتوفي سنة 808 هـ / 1406 م ، أما عن نشأته فقد كانت كنشأة علماء عصره حافلة بالدأب على التحصيل العلمي من شيوخ عصره فقرأ القرآن العظيم والقراءات السبع المشهورة إفرادا وجمعا في إحدى وعشرين ختمة ، كما عرض قصيدة الشاطبي اللامية في القراءات والرائية في الرسم ، وقرأ جملة من الكتب أهمها : كتاب التفسير لأحاديث الموطأ ، وكتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر ابن الخطيب في الفقه ، وتعلم العربية على والده ، وعلى الشيخ أبي عبد الله محمد العربي الحصايري ، وأبي عبد الله محمد بن الشواش المزازي ... وغيرهم . وما عرف به ابن خلدون شدة ذكائه وسرعة حفظه للمتون والمعلقات والشعر ، فقد " حفظ القرآن الكريم والشاطبتين ، ومختصر ابن الحاجب ، وحفظ المعلقات والحماسة وشعر حبيب وقطعة من شعر المتنبي "، وقال عنه ابن حجر أنه أخذ العربية وبرع في العلوم وتقدم في الفنون ، ومهر في الأدب والكتابة . واشتهر بكثرة رحلاته في تحصيل العلم ، والاطلاع على مصادر المكتبات الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس ، وممارسة النشاط السياسي ، مع ما حتمته عليه الدسائس والمؤامرات من اعتزال السياسة والتفرغ للتأليف ، فألف أضخم كتاب من ناحية الموضوع ألا وهو المقدمة ، ومن رحلاته : رحلته لى المغرب الأقصى ، ثم إلى غرناطة التي التقى فيها بابن الخطيب ،كما ترك بصمته في بجاية ، وتقرب من سلطانها وقربه إليه وعين خطيبا بجامع القصبة ، وسافر إلى تونس ومصر هذه الأخيرة التي مارس فيها مهنة القضاء ، وقد قضى فيها مرحلة

من الزمن فالتدريس والقضاء شغل منصبهما من سنة 784 هـ إلى أواخر سنة 808 هـ حيث توفي قاضيا رحمه الله . أنظر تفاصيل ترجمته في : ابن خلدون ، العبر ، دار الفكر ، بيروت ، د . ط، ج : 7 ، ص : 503 . أبو القاسم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، تق : محمد رؤوف القاسمي الحسني ، موفم للنشر ، د . ط ، ج : 2 ، ص : 27 . ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، تح : حسين حبسي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، د . ط ، ج : 1 ، ص : 322 ، ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، دار المعارف ، مصر ، د . ط ، ص : 69 . لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح : محمد عبد الله عنان ، الشركة المصرية ، القاهرة ، ط : 2 ، ج : 3 ، ص : 499 .

[2] . أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، دار الفكر ، د . ط ، 1979 م ، ص : 368 .

[3] . الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تح : إبراهيم السمرائي ، لبنان ، ط : 1 ، 1988 م ،

[4] . الرازي محمد بن أبي بكر ، مختار الصحاح ، دار الهدى ، عين ميلة ، الجزائر ، ط : 4 ، 1990 م ، ص : 242 .

[5] . ماريو باي ، أسس علم اللغة ، ترجمة : أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، ط : 8 ، 1998 م ، ص : 46 . 47 .

[6] . جوزيف فندريس ، اللغة ، ترجمة : عبد الحميد الدواخلي ، محمد القصاص ، تقديم : فاطمة خليل ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، د . ط ، 2014 م ، ص : 37 .

[7] . بن قويدر عيشة ، سيميائية العنوان في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه ، إشراف ، بولمعالي النذير ، جامعة المدية ، 2018 . 2019 م ، ص : 106 . 107 .

[8] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 757 وما بعدها . وقد تميز الدرس الصوتي عند الخليل وغيره من علماء العربية الذين جاءوا من بعده بالتحليل الموسيقي الذي قام على تحليل الأصوات ، وتحديدها مخرجا وصفة .. وقد أعطى الخليل لترتيب الأصوات طابعا جديدا لم يسبقه أحد إلى ذلك بحسب مخارجها ، ورتبها على النحو التالي : العين ، الحاء ، الهاء ، الخاء ، الغين ، القاف ، الكاف ، الجيم ، الشين ، الضاد ، الصاد ، السين ، الزاي ، الظاء ، الثاء ، الذال ، الراء ، اللام ، النون ، الفاء ، الباء ، الميم ، الواو ، الألف، الياء ، الهمزة . والي دادة عبد الحكيم ، محاضرات في علم الأصوات ، ص : 8 .

[9] . المقدمة ، ص : 757 . 758.

[10] . نفسه ، ص : 768 .

[11] . نفسه ، ص : 768 .

[12] . نفسه ، ص : 769 .

[13] . أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ، عالم الكتب ، القاهرة ، د . ط ، 1997 م ، ص : 318 .

[14] . الكاف يتم إنتاجها عن طريق قفل المجرى ثم فتحه فتحا فجائيا (انفجاري) . أنظر : نفسه .

[15] . المقدمة ، ص : 769 . 770 .

[16] . **اللسان** : من أعضاء العملية الصوتية وهو مقسم إلى الأجزاء الآتية : القاعدة ، الظهر ، الطرف ، الجانبان ، الحاجز الأوسط ، وهو عضو عظيم المرونة فمن الممكن أن يمتد إلى الأمام حتى يتجاوز الأسنان ، وأن يتراجع إلى الخلف حتى يبعد عنها بمقدار ثلاث سنتيمترات ، ويمكن لأي جزء من أجزائه أن يتراجع إلى الخلف .. للمزيد أنظر : عبد الرحمن أيوب ، أصوات اللغة ، ص : 40 وما بعدها .

[17] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 747 وما بعدها .

[18] . نفسه ، ص : 753 .

[19] . حسام البهنساوي ، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، د . ط ، د . ت ، ص : 24 .

[20] . عبد الرحمن أيوب ، أصوات اللغة ، مطبعة الكيلاني ، القاهرة ، د . ط ، 1968 م ، ص : 87 .

[21] . المقدمة ، ص : 754 .

[22] . سعيد بوخاوش ، النظرية اللغوية الخلدونية وكيفية توظيفها في اكتساب اللغة العربية تحليل نقد مقاربة ، إشراف : د . سالم علوي، مذكرة ماجستير ، المدرسة العليا للأساتذة . بوزريعة ، 2004 .2005 م ، ص : 119 .

[23] . إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط : 5 ، 1975 م ، ص : 13 .

[24] . المقدمة ، ص : 754 .

[25] . سعيد بوخاوش ، المرجع السابق ، ص : 122 .

[26] . أحمد مختار عمر ، المرجع السابق ، ص : 48 .

[27] . سعيد بوخاوش ، المرجع السابق ، ص : 135 .

[28] . المقدمة ، ص : 635 .

[29] . نفسه .

[30] . ماريو باي ، المرجع السابق ، ص : 48 .

[31] . نفسه ، ص : 41 .

[32] . سفيان موسى إبراهيم خليل ، القراءات القرآنية وتوجيهها في تفسير الرازي ، إشراف : أحمد خالد شكري ، مذكرة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، 2003 م ، ص : 8 . 9 .

[33] . المقدمة ، ص : 551 - 552 .

[34] . نفسه ، ص : 550 .

[35] . نفسه ، ص : 552 .

[36] . يونس زواوي ، الأصوات اللغوية وتجاورها عند علماء التجويد بين التقابل التنظيري العلمي والتطبيق الأدائي العملي ، مجلة الصوتيات ، العدد 2 ، المجلد 16 ، ديسمبر 2020 م ، ص : 51 . 52 .

[37] . المقدمة ، 537 .

[38] . نفسه .

[39] . نفسه .

[40] . المقدمة ، ص : 784 .

[41] . نفسه ، ص : 336 .

[42] ـ سعيد بوخاوش ، المرجع السابق ، ص : 131 .

[43] . المقدمة ، ص : 746 .

المصادر والمراجع:

1 . ابن خلدون ، العبر ، مراجعة : سهيل زكار ، ضبط : خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ، د . ط ، 2001 م .

2 . ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، تح : حسين حبسي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، د . ط ، 1389 هـ .

3 . ابن الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح : محمد عبد الله عنان ، الشركة المصرية ، القاهرة ، ط : 2 ، 1393 م.

4 . أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، دار الفكر ، د . ط ، 1979 م .

5 . أبو القاسم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، تق : محمد رؤوف ، القاسمي الحسني ، موفم للنشر ، د . ط ، 1991 م .

6 . الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تح : إبراهيم السامرائي ، لبنان ، ط : 1 ، 1988 م .

7 . إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط : 5 ، 1975 م .

8 . أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ، عالم الكتب ، القاهرة ، د . ط ، 1997 م .

9 . جوزيف فندريس ، اللغة ، تر : عبد الحميد الدواخلي ، محمد القصاص ، تق : فاطمة خليل ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، د . ط ، 2014 م .

10 . حسام البهنساوي ، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، د . ط ، د . ت .

11 . ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة بن خلدون ، دار المعارف ، مصر ، د . ط ، 1953 م .

12 . عبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة، مطبعة الكيلاني، القاهرة، د . ط، 1968 م .

13 . ماريو باي، أسس علم اللغة ، تر : أحمد مختار عمر ، عالم الكتب، ط: 8 ، 1998 م .

14 . بن قويدر عيشة، سيميائية العنوان في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه ، إشراف ، بولمعالي النذير ، جامعة المدية ، 2018 . 2019 م.

15. سعيد بوخاوش، النظرية اللغوية الخلدونية وكيفية توظيفها في اكتساب اللغة العربية تحليل، نقد ، مقاربة ، إشراف : د . سالم علوي، مذكرة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة ، 2004 . 2005 م .

16 . سفيان موسى إبراهيم خليل، القراءات القرآنية وتوجيهها في تفسير الرازي، إشراف : أحمد خالد شكري ، مذكرة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، 2003 م .

17 . يونس زواوي، الأصوات اللغوية وتجاورها عند علماء التجويد بين التقابل التنظيري العلمي والتطبيق الأدائي العملي، مجلة الصوتيات، العدد ، المجلد 16 ، ديسمبر 2020 م .